

سورة الحجر

سورة الحجر

الحمد لله وكفى، وسلام على المصطفى، وعلى عباده الذين اصطفى.
أما بعد، فهذه سورة الحجر المكية، والتي يدور محورها حول المصير المخيف
للظالمين في الآخرة، وبعض ما نالهم في الدنيا.

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ١﴾

﴿الرَّ﴾ هي من الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور، وقد سبق الحديث
عنها.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذه معجزات الكتاب.

﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ وهو: قرآن كثير التوضيح عن الله، وصفاته، ورسله، وشرعه،
وحلاله، وحرامه، وعلل الإنسان وعلاجها إلى غير ذلك.

ثم يخبر ربنا في مطلع السورة عن أن الكفار يوم القيامة سيندمون، ويتمنون - لما
يرزن - أن لو كانوا مسلمين، يقول الله تعالى:

﴿زَيْمًا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ٢﴾

أي: سيتمنى الكفار يوم القيامة لما يروونه من العذاب الواقع بهم، والنعيم يتمتع به
المسلمون ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فينجون، ويسلمون من هذا العذاب.

ثم يقول ربنا لمحمد ﷺ عن كفار مكة:

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ٣﴾

يعني: دك من هؤلاء الكفار يا محمد، وتركهم ﴿يَأْكُلُوا﴾ ويشغلوا بلذاتهم ﴿وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بدينامهم ﴿وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ بطول العمر، ودوام الصحة، عن الإيمان وطاعة الله، ولا تحزن عليهم.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم، وسوء مآلهم.

ولمّا أمره ربه سبحانه بتركهم، وعدم الانشغال بهم، ذكر له علل ذلك وأسبابه، فقال في السبب الأول:

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٥﴾﴾

في هاتين الآيتين يبين ربنا أنه لم يؤخر العذاب عنهم إهمالاً، ولكن ليبلغوا أجلهم المقدر لتعذيبهم هذا.

والمعنى: أنه ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ﴾ أهل ﴿قَرِيَةٍ﴾ لكفرهم ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ﴾ أي: موعد مكتوب ﴿مَعْلُومٌ﴾ عند الله تعالى، في اللوح المحفوظ، وفي حكمنا وستتنا أنه ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ ظالمة ﴿أَجَلَهَا﴾ المحدد ﴿وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ عنه. وعلى هذا فدعهم يا محمد، وستولى نحن أمرهم.

ثم قال سبحانه في السبب الثاني:

﴿وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾
أي: لأنهم..

أولاً: ﴿قَالُوا﴾ استهزاء بك ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي: القرآن، ولم يقولوا: يا محمد احتراماً وتقديراً.

ثانياً: وصفوك بالجنون؛ حيث قالوا: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ لأنك تدعي النبوة، وهذا قول المجانين.

ثالثاً: أنك تهزأ بنا وتكذب علينا؛ إنك ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ﴾ تشهد لك، فأنت بها ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾.

وقد رد الله عليهم بقوله:

﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾

يعني: نحن ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ لمجرد اقتراحهم بنزولها، وما ننزلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهو العذاب، والعذاب له أجل محدد. ولو نزلت الملائكة كما يقترحون ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا﴾ أي: حين نزولها ﴿مُنْظَرِينَ﴾ مؤخرين العذاب، بل لهلكوا في ساعتها.

كما أن إنزال القرآن عليك قد تم بطلبك، أو أنه من صنعك كما يزعمون، بل ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ الذين ﴿نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن، بوحينا وأمرنا ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ كذلك من التحريف، والتبديل، والزيادة أو النقص.

وعلى هذا فدعهم يا محمد، وستولى نحن أمرهم.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى، في السبب الثالث، لأمره للنبي بتركهم ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَجِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ رسلاً ﴿فِي شِعَجِ﴾ فرق ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم السابقة. وهذه الفرق من الأمم السابقة كانوا ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ من هؤلاء الرسل يبلغهم عن الله، ويدعوهم إلى الإيمان به ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ﴾ ويدعوته ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ كما يفعل الكفار من قومك معك.

و ﴿كَذَلِكَ﴾ الكفر والاستهزاء الذي كان في قلوب السابقين ﴿نَسْلُكُهُمْ﴾ أي: ندخله ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ من قومك. حيث إنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن، وما فيه من إنذارهم بالعذاب ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ أي: سبقت ﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ بتعذيبهم على كفرهم، وهؤلاء مثلهم سيعذبون إن ظلوا على عنادهم وكفرهم.

وعلى هذا، فدعهم يا محمد، وستولى نحن أمرهم.

ثم يقول المولى في السبب الرابع:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

يعني: هؤلاء ﴿لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ آية ليؤمنوا ﴿فَظَلُّوا فِيهِ﴾ أي: في هذا الباب ﴿يَعْرُجُونَ﴾ يصعدون في السماء، ثم آية؛ ليؤمنوا أيضًا.. لما آمنوا، و﴿لَقَالُوا﴾ عنادًا وكفرًا وتكذيبًا: ﴿إِن﴾ الذي نراه، ويحدث لنا ﴿مَا﴾ هو إلا خيال، ونحن قد ﴿سُكِرَتْ﴾ حبست ﴿أَبْصَارُنَا﴾ عن الرؤية الحقيقية، لا بل ﴿نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ سحرنا محمد؛ لنؤمن به، ونتبع دعوته.

وعلى هذا، فدعهم يا محمد، وستولى نحن أمرهم.

وبعد أن استقر هذا الأمر الإلهي لمحمد ﷺ ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا﴾ [الحجر: ٣]، وبعد أن اتضحت علله وأسبابه، يحدثنا رب العزة عن بعض الظواهر الكونية الدالة على وجوده، بما لا يقبل إنكارًا، ولا يحتمل جدلاً.. فيقول سبحانه وتعالى:

أولاً: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَن أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ، شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ﴾ خلقنا ﴿فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ يعني: منازل للنجوم، والكواكب، ومسارات تنزل بها، وتسير فيها.

﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ أي: السماء بالكواكب والنجوم ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ إليها بأبصارهم، والمعتبرين بها ببصائرهم.

﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ بقدرتنا ﴿مِنْ﴾ دخول ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ إليها.

﴿إِلَّا﴾ أي: لكن ﴿مَن أَسْرَقَ السَّمْعَ﴾ منهم، أي: حاول سرقة المسموع من أخبار الغيب ﴿فَاتَّبَعَهُ﴾ ولحقه، ودمره ﴿شِهَابٌ﴾ أي: شعلة نار، أو جزء من مادة النجوم ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر للنظرين.

ثانياً: ومن هذه الظواهر الكونية الدالة على وجود الله بما لا يقبل إنكاراً، ولا يحتمل جدالاً ما يذكره سبحانه في قوله:

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٍ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرِزْقَيْنِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

أي: ﴿و﴾ لقد خلقنا ﴿الْأَرْضَ﴾ لسكناكم، و ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها، وجعلناها صالحة لمعيشتكم عليها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ﴾ أي: جبلاً راسيات؛ لئلا تهتز بأهلها، في حركتها.

﴿و﴾ من إنعامنا عليكم؛ أننا ﴿أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تحتاجونه بقدر ﴿مَوْزُونٍ﴾ بميزان الحكمة.

﴿و﴾ كذلك ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٍ﴾ من المطاعم والمشارب التي يعيش بها وعليها الإنسان.

﴿و﴾ رزقنا ﴿مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرِزْقَيْنِ﴾ أي: رزقنا ما تنتفعون به من الدواب والأنعام وغيرها، حيث إن الرازق لكم ولهم هو الله. وليكن معلوماً أنه ما ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ في الكون ﴿إِلَّا عِنْدَنَا﴾ مفاتيح ﴿خَزَائِنُهُ﴾ التي هو محفوظ فيها. كما أننا ﴿مَا نُنْزِلُهُ﴾ من هذه الخزائن، لمن نرزقهم به ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ مقدر، على حسب المصالح.

وثالثاً: من هذه الظواهر الكونية، الدالة على وجود الله، بما لا يقبل إنكاراً، ولا يحتمل جدالاً ما يبينه سبحانه وتعالى في قوله:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

يعني: ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ لكم بقدرتنا ﴿الرِّيحَ﴾ في الجو ﴿لَوْفِحَ﴾ أي: تلمح السحاب؛ فيمتلئ ماءً.

﴿فَأَنزَلْنَا﴾ لكم بقدرتنا ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من السحاب هذا الماء، مطرًا.
 ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ يعني: جعلناه سقيًا لكم، ولأرضكم، ومواشيكم ﴿وَمَا أَنشَأْ
 لَهُمُ مِّنْ مَّخْرَجٍ﴾ أي: ليست مفاتيح خزائنه بأيديكم، بل بأيدينا نحن.
 ورابعًا: يدل ربنا على وجوده وقدرته، بما لا يقبل إنكارًا، ولا يحتمل جدالًا بظاهرة
 الإحياء والإماتة، وموضوع البعث. فيقول تبارك وتعالى:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ
 عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾
 أي: ﴿وَإِنَّا﴾ فقط ﴿لَنَحْنُ﴾ الذين ﴿نُحْيِي﴾ بالخلق الخلاق كلها، ﴿وَنُمِيتُ﴾
 بقدرتنا من جاء أجله منهم.

﴿وَنَحْنُ﴾ فقط الباقون ﴿الْوَارِثُونَ﴾ حيث يزول كل مالك، ويبقى ملك المالكين لنا.
 ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ﴾ الوحيد، القادر، الذي يحيط بجميع الخلاق، ويعرف حصرهم
 ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ للحساب يوم القيامة.

﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه.

وخامسًا: يدل ربنا عز وجل على وجوده وقدرته بما لا يقبل إنكارًا، ولا يحتمل جدالًا
 بخلق الإنسان، وخلق الجان. فيقول ربنا عز سلطانه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (٢٦) وَلَئِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِنْ
 نَّارِ السُّمُورِ ﴿٢٧﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾ بقدرتنا ﴿الْإِنْسَانَ﴾ أي: أصله، وهو آدم عليه السلام ﴿مِنْ
 صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ﴾ أي: من طين أسود ﴿مَّسْنُونٍ﴾ أي: مصبوب مفرغ.

يقول الإمام النسفي رحمه الله: كان ترابًا، فعُجن بالماء فصار طينًا، فمكث وغاب
 هكذا، فصار حمًا، فخلص فصار سلالة، فصور ويس فصار صلصالًا، ومنه خلق آدم.

﴿وَلَئِنَّا﴾ كذلك ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ بقدرتنا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ خلق آدم، لكن ليس من طين،

بل خلقناه ﴿مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾ أي: من النار الشديدة الحرارة، النافذ حرها إلى المسام.
هذا ولمّا ذكر ربنا عز وجل خلق الإنسان الأول، واستدل بذكره على وجود الإله
وقدرته؛ ذكر بعد ذلك واقعة أمر الملائكة بالسجود له فأطاعوه إلا إبليس، فإنه أبى
وتمرد. يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَاطِلِ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾
فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أي: اذكر يا محمد لقومك وللدنيا كلها ﴿إِذْ﴾ وقت أن ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي
خَلَقْتُ بَشَرًا﴾ أي: إنساناً من جسم كثيف يباشر ويلافي، بخلاف أجسامكم اللطيفة، التي
لا تباشر، ولا تلمس.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي: صورته وسويت خلقه بالصورة الإنسانية، والخلقة البشرية
﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ روحاً، هي بعض ﴿مِن رُّوحِي﴾ أي: الأرواح التي خلقتها ﴿فَقَعُوا
لَهُ سَاجِدِينَ﴾ سجدود تحية وانحاء.

ماذا فعلت الملائكة؟

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ
السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾

نعم، ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾ فوراً ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ لهذا الأمر الإلهي؛ لأنهم
﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ وهو أبو الجن، والذي كان بين الملائكة ﴿أَبَى﴾ وامتنع ﴿أَن
يَكُونَ مَعَ﴾ الملائكة ﴿السَّاجِدِينَ﴾ بأمر الله لآدم ﷺ.

وماذا حدث بعد ذلك؟

﴿قَالَ يَتْلِيَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ
خَلَقْتَهُ مِن صَلَاطِلِ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿يَتْلِيَ مَا لَكَ﴾ لم تسجد، ما الذي منعك ﴿أَلَّا تَكُونَ

﴿مَعَ الْمَلَائِكَةِ﴾ ﴿الْمُسَجِّدِينَ﴾ لآدم؟ ﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ﴾ أي: لا ينبغي لي، ولا يصح مني بحال من الأحوال، أن أسجد ﴿لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَـصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾.

ماذا قال ربنا لإبليس أمام تكبره وغطرسته وعناده؟

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴿قَالَ﴾ رب العزة لإبليس عقابًا له: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، أو من السماء ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مطرود من رحمة الله، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ﴾ بسبب عصيانك ﴿اللَّعْنَةَ﴾ أي: الطرد من رحمة الله ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: يوم القيامة، وبعدها يكون العذاب الذي ينسبك هذا اللعن تمامًا لشدته.

ماذا كان موقف إبليس اللعين؟

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ أي: ﴿قَالَ﴾ إبليس لربه: ﴿رَبِّ﴾ ما دمت طردتني من جنتك، وأبعدتني عن رحمتك ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾ أي: أخرني، وأمهلي، ولا تهلكني ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: إلى وقت النفخة الثانية، التي لا موت بعدها، وذلك حتى لا يموت أبدًا. هل وافقه رب العزة على ما طلب؟ أبدًا بل:

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ يعني: ﴿قَالَ﴾ ربنا لإبليس اللعين: قد أجبتك إلى ما طلبت في الإمهال والتأخير ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾. ولكن لا إلى ﴿يَوْمِ﴾ البعث، بل إلى ﴿الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهو النفخة الأولى، التي يموت فيها الخلائق، ثم يبعثون، فتموت معهم، ثم تبعث مع الناس للحساب إذا بعثوا. وهنا طلب إبليس طلبًا عجيبًا، حيث:

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي: بسبب أمرك لي بالسجود لآدم، وعصيانِي وطرديك لي ﴿لَأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ المعاصي ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي: أحملهم على الغواية والضلال ﴿أَجْمَعِينَ﴾ حتى يستجيبوا لي، ويضلوا. وهم سيستجيبون لي ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ فهم لا يستجيبون؛ لأن كيدي وإغوائي لهم لا يؤثر فيهم.

ولمّا أشهر إبليس سلاحه، وأعلن بدء حربه مع خلق الله، وأنه لن ينجح في حربه مع عباد الله المخلصين، أعلن الله تعالى حمايته لهؤلاء المخلصين. حيث:

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤١) ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤٢) ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٣) ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (٤٤)

يعني: ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿هَذَا﴾ أي: تخليص المخلصين من إغواء إبليس ﴿صِرَاطٌ﴾ أي: طريق يؤدي إليّ، وإلى مرضاتي، وهو حق ﴿عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ﴾ أن أراعيه، وأراعيهم فيه.

حيث: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ المخلصين يا إبليس ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: قوة في الإغراء توقعهم بها في الكفر، أو المعاصي.

﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ﴾ في إغرائك ﴿مِنَ الْغَاوِينَ﴾ العاصين.

﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ التي نعذب فيها الكفار والعصاة ﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ معك للعذاب فيها. وجهنم هذه ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أي: طبقات هي: جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

و ﴿لِكُلِّ بَابٍ﴾ من أبوابها هذه ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من الكفار والعصاة ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ نصيب محدد معلوم.

وبعد أن تحدث المولى عن جهنم وأهلها، بشر بالجنة وأهلها، فقال عز من قائل:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤٥) ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ (٤٦)

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّقْنَصِينَ﴾ (٤٧) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (٤٨) أي: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ ربهم يدخلون وقيمون ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

ويقال لهم: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ أي: آمنين فيها من الخوف، أو الآفات، أو الفزع، أو الخروج منها. وإن كان لأحدهم غل على آخر في الدنيا، نزع الله من قلبه وطهر روحه قبل الدخول. يقول تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ فلا يتحاسدون فيها، بل يتوادون، ويتحابون، ويكونون ﴿إِخْوَانًا﴾ مترابطين، يجلسون في الجنة ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّقْنَصِينَ﴾ لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، بل يكون النظر الدائم إلى الوجوه لدوران هذه السرر، أو بكيفية لا يعلمها إلا الله.

وكذلك: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿نَصَبٌ﴾ أي: تعب ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أبدًا، وهذا من تمام إنعام الله عليهم. جعلنا الله وإياكم منهم، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

وبعد أن ذكر الله تعالى - فيما قرأناه - بعضًا من دلائل التوحيد والقدرة الإلهية، وبعد أن أوعد العصاة، ووعد الطائعين، في نهاية قصة آدم عليه السلام. أتبع ذلك بقوله:

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (٥٠)

أي: أخبر يا محمد ﴿عِبَادِي﴾ المعترفين بعبوديتي، الطائعين منهم، والعصاة ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ﴾ لذنوبهم إذا رجعوا إليّ تائبين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم، في الدنيا والآخرة. وأخبرهم كذلك ﴿أَنَّ عَذَابِي﴾ للكافرين والعصاة ﴿هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ المؤلم، الشديد الإيلام. وكان ذلك الوعد والوعيد؛ ليختار كل إنسان طريقه، وليبدأ كل إنسان من الآن.

يا محمد، هذه سنتنا في الأولياء، وفي الأعداء. وقد بيّنا لك تطبيق ذلك في الآخرة عند ذكر قصة آدم عليه السلام، ونبين لك وللدنيا كلها، تطبيق هذه السنة في الدنيا، في هذا القصص التالي. . فابدأ..

﴿وَنَبِّئَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۚ﴾
 ﴿٥٢﴾ ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۚ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ
 الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ ۚ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿قَالُوا بِشَرِّنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْفَظِّينَ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿قَالَ
 وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ ۖ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۚ﴾
 ﴿٥٧﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿إِلَّا عَالِ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ
 أَتَمَّعِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَيْرُ﴾ ﴿٦٠﴾

المعنى: أخبر الدنيا كلها يا محمد ﴿عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿إِذْ﴾ وقت أن
 ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ منزله ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي: عليك. فرد عليهم - كما في سورة هود
 [٦٩، ٧٠] - ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: عليكم ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ﴾ لهم ﴿بِعِجْلِ حَنِيذٍ﴾ مشوي،
 من باب الضيافة؛ ليأكلوا، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الأكل، أي: لا يأكلون
 ﴿نَكَرَهُمْ﴾ يعني: استنكر ذلك منهم ﴿وَأَوَّحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لعدم قبولهم تحيته
 و﴿قَالَ﴾ لهم ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون، فردوا عليه، و﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾
 لا تخف منا ﴿إِنَّا﴾ رسل ربك جئناك ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ بأمر الله ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ ذو
 علم كثير.

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بالولد ﴿عَلَىٰ﴾ أي: بعد ﴿أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾
 وهذا مستبعد ﴿فِيمَ تُبَشِّرُونَ﴾ وهذا من العجائب؟ ﴿قَالُوا﴾ له: نحن ﴿بَشَرِّنَاكَ
 بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْفَظِّينَ﴾ أي: من الآيسين من ذلك، فإن الله قادر على أن يخلق
 بشرًا من غير أبوين، فكيف من شيخ كبير، وامرأة عجوز عاقر؟

﴿قَالَ﴾ أنا لا أقنط من قدرة الله، كيف ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ ۖ إِلَّا
 الضَّالُّونَ﴾ الكافرون، ولكني أتعجب من ذلك، وأستغربه بحكم العادة.

ثم سألهم صراحة عما جاءوا له أصلاً، حيث ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي:
 أمركم الذي جئتم أساساً من أجله ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾؟

﴿قَالُوا﴾ يجيئونه: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾ من ربنا ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ وهم قوم

لوط الكافرون، لإهلاكهم بأمر الله: ﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ﴾ فقط وهم أتباعه والمؤمنون به ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ أي: أهله هؤلاء ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

﴿إِلَّا أَمْرَاتَهُ﴾ أي: لكن امرأته لا ننجيها، بل نهلكها مع الهالكين، حيث ﴿قَدَرْنَا﴾ أي: قدر الله، وأخبر ﴿إِنَّهَا لَمِنَ الْغَايَةِ﴾ أي: المهلكين.

وزهدت الملائكة إلى لوط عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ﴾ ١١ ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ ١٢ ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ١٣ ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ١٤ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْنِفْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ ١٥

أي: لما وصلت الملائكة إلى لوط عليه السلام، ودخلوا عليه ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ لا أعرفكم، ولا أعرف من أين جئتم، ولماذا جئتم، وأخاف أن تمسوني بسوء مثل باقي القوم هنا.

﴿قَالُوا﴾ له: لا تخف، ولسنا من هؤلاء القوم ﴿بَلْ﴾ نحن رسل ربك ﴿جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: قومك ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: بعدابهم الذي خوفتهم منه، وأنذرتهم به، وكانوا في مجيئه يشكون.

﴿وَوَدَّ﴾ قد ﴿أَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ﴾ الذي تبصره بعيونك من عذابهم ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في كلامنا هذا، وسوف ترى.

ولهذا نقول لك: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أي: اخرج من هذا البلد ومعك أهلك المؤمنون بك، وسر بهم ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي: في آخر الليل، بعد أن ينام قومك، فلا يشعرون بخروجك، يروى: أنه لم يخرج معه إلا بنتاه، حيث كانتا هما المؤمستان فقط ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ أي: سر خلفهم، لتطمئن عليهم ﴿وَلَا يَلْنِفْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ إذا سمعتم صيحة تعذيبهم؛ لئلا تروا ما ينزل بهم، صيانة لعيونكم وأعصابكم ﴿وَامْضُ﴾ أي: وسيروا إلى ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي: إلى المكان الذي يأمركم الله تعالى بالتوجه إليه.

وسمع لوط عليه السلام من الملائكة هذا الكلام، وعرف منهم قرب نزول العذاب بالكافرين من أهل بلده، وكأنه رق لحالهم، ورغب في إيمانهم، ونجاتهم. لذلك يقول الله تعالى:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ﴾ (٦٦)

يعني: ﴿وَقَضَيْنَا﴾ أي: وأوحينا ﴿إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ وأعلمناه به، وهو ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ أي: هالكون عن آخرهم، ولا يبقى منهم أحد، حال كونهم ﴿مُّصْحِحِينَ﴾ يعني: في الصباح. وفهم لوط الأمر، ورضي لوط بالوحي، فهل انتهت القصة؟ لا، لم تنته بعد. يقول رب العزة:

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٦٧)

أي: بعد وصول الملائكة إلى بيت لوط عليه السلام، ودخولهم فيه ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ إلى لوط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يبشر بعضهم بعضاً بضيوف لوط، الذين سيفعلون معهم الفاحشة. ووصلوا إلى لوط، ودخلوا بيته، وقد فهم بدوره ماذا يريدون؟

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ (٦٨) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ (٦٩)

يعني: ﴿قَالَ﴾ لوط لقومه المتجمهرين عنده: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ وواجب الضيف إكرامه ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ بالإساءة إلى ضيوفي. قال ذلك مجارة لهم، وهو يعلم أنهم لن يصنوا إليهم، وذلك لحثهم على ترك الفاحشة، وتعليم واجب إكرام الضيف واحترامه، لعل وعسى.

ثم قال لهم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالبعد عن الفاحشة ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ أي: ولا تذلونني بإذلال ضيفي.

وهنا أغلظوا له القول، حيث:

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٠)

أي: ﴿قَالُوا﴾ له ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ قبل ذلك أن تستضيف أحداً ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أبداً؟

فرد عليهم لتعليمهم حكم الإسلام، وسنة الله في خلقه.

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٧١)

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ فأسلموا وتزوجوهن أو: فتزوجوهن، وكان في شريعته جواز أن يتزوج الكافر بالمسلمة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ما تريدون من قضاء الشهوة.

وهنا يقول الله تعالى لمحمد ﷺ قبل أن يخبره بنهاية القصة؛ ليعتبر أمثالهم:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٢)

﴿لَعَمْرُكَ﴾ يعني: بحياتك يا محمد ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ غوايتهم وضلالهم الذي أذهب عقولهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون، ولا يعرفون ما فيه صالحهم. ثم يخبره سبحانه عن نهاية القصة، ونزول العذاب بهم قائلاً:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ (٧٣) ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ (٧٤)

يعني: وخرج لوط من هذه القرية ومعه ابنتاه، وطوى الله له الأرض، حتى نجا ومن معه.

وهنا يقول المولى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ أي: أهلك قوم لوط صيحة جبريل عليه السلام ﴿مُشْرِقِينَ﴾ ساعة طلوع الشمس من مشرقها.

﴿فَجَعَلْنَا﴾ بهذه الصيحة ﴿عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ حيث رفعها جبريل إلى السماء وأسقطها مقلوبة إلى الأرض.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على من كان منهم خارج قراهم، في سفر أو غيره ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ من طين قوي متحجر مطبوخ بالنار.

ثم يعلق ربنا على هاتين القصتين، قصة إبراهيم عليه السلام وقصة لوط عليه السلام، بما يلفت النظر إلى ما فيهما من عبر ودروس قائلاً:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ القصص ﴿لَآيَاتٍ﴾ وعبر ودروس كثيرة ﴿لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ المفكرين، الناظرين بعين البصر والبصيرة، فهل من معتبر؟ ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: قرئ قوم لوط ﴿لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: بطريق ثابت باق، يراه المسافر، والدارس، وكل من أراد. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ القصص ﴿لَآيَةً﴾ كافية ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعتبرون بها، ويفيدون منها.

وعن القصة الثالثة، يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لِيَا مَامِرٌ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾
يعني: وإنه ﴿كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أي: أصحاب بقعة الأشجار الكثيفة، وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿ظَالِمِينَ﴾ بتكذيبهم شعيباً وعدم إيمانهم. ماذا حدث لهم بسبب ظلمهم وعنادهم؟ يقول تعالى: ﴿فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالصيحة، والرجفة، وعذاب يوم الظلة. ثم يقول ربنا عز وجل عن قرئ قوم لوط، وأيكة قوم شعيب: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: هذه وتلك ﴿لِيَا مَامِرٌ مُّبِينٍ﴾ أي: بطريق واضح، ثابت، باق، يراه المسافر، والدارس، وكل أحد.

يعني: فهل من معتبر؟

وعن القصة الرابعة - والتي سميت بها السورة - يقول سبحانه:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَايَتْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ﴾ كذلك ﴿أَصْحَابُ الْحَجَرِ﴾ وهم ثمود، وبلادهم بين الشام والمدينة المنورة، وآثارهم لا زالت موجودة إلى اليوم. لقد كذب هؤلاء ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ إليهم، وهو صالح عليه السلام.

﴿وَءَايَتْنَاهُمْ﴾ ما طلبوا من ﴿ءَايَاتِنَا﴾ وهي الناقة التي أخرجها الله لهم من الصخرة ﴿فَكَانُوا عَنْهَا﴾ لاهين، وعن الإيمان بالله ﴿مُعْرِضِينَ﴾.

﴿و﴾ هؤلاء ﴿كَانُوا﴾ لقوتهم التي أعطيناها لهم ﴿يَنَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ لهم، يقيمون فيها ﴿ءَامِنِينَ﴾ حيث يحسبون أنها تقيهم من عذاب الله، الذي خوفهم منه صالح عليه السلام، لعدم إيمانهم.

أتدرون ماذا حدث لهؤلاء الأقوياء؟ يقول ربنا عز وجل: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ بالعذاب ﴿مُصْبِحِينَ﴾ في اليوم الرابع من قول صالح لهم:

﴿تَمَتُّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وهكذا عذبوا، وسقطوا، وضاعوا. ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ وما أفادهم، وما منع عنهم العذاب ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من أموال، وبيوت، وزروع.. إلخ ما داموا لم يؤمنوا، ولم يطيعوا الله سبحانه وتعالى.

وهكذا، انتهى القصص الذي أراد المولى أن يلفت به أنظار الظالمين، المعاندين، الذين يستبعدون عذاب الله في الدنيا؛ لعلهم يعتبرون فيتعظون، فيستقيمون على دين الله، ويعملون بشريعته سبحانه؛ فينجون من غضبه وعذابه. وفي ختام السورة يكون الحديث الناصح الموجه من رب العزة للنبي صلى الله عليه وسلم، حيث يقول تعالى مثبِّتاً له، ومقرراً ليوم البعث الذي ينكرونه:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَفِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

يعني: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ولغاية، وليس عبثاً ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ﴾ أي: القيامة ﴿لَآتِيَةٌ﴾ لا محالة، وفيها الجزاء العادل للعاصي والمطيع ﴿فَاصْصَفِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ أي: ما دام الأمر إلى الله، وسيجازيهم هو، فعاملهم بالخلق الحسن، والعفو عنهم، والصفح.

حيث: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ﴾ الذي خلقتك وخلقهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالك وحالهم، لا يخفى عليه شيء من ذلك. ثم يقول له سبحانه:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧) ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨) ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩) ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩٠) ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩١) ﴿

وفي هذه الآيات الكريمة: يمتن الله على محمد ﷺ، ويذكره بنعمة القرآن العظيم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ من لدنا ﴿سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ وهي سورة الفاتحة، وآتيناك ﴿الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ كله، تشريقاً لك، ومنهاجاً لأمتك، وفيه الغنى كل الغنى.

ثم ينهاء عن شيئين؛ ويأمره بشيئين:

النهي الأول: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي: أصنافاً من الكفار بمتاع الحياة الدنيا، فقد آتيناك ما هو أفضل، وأفضل، وأفضل.. وهو القرآن العظيم.

النهي الثاني: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إن لم يؤمنوا، أي: من أجل إيمانهم؛ رغبة فيه.

والأمر الأول: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لئن لهم، وتواضع معهم، وأحسن إليهم، فقراء منهم وأغنياء.

والأمر الثاني: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المكذبين لك: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ لكم من عذاب الله؛ لتؤمنوا، حتى لا ينزل بكم ﴿كَمَا أَنزَلْنَا﴾ هـ ﴿عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا﴾ كتبهم عِضِينَ، أي: أقساماً فأمنوا ببعضها، وكفروا بالبعض الآخر منها، كما جعل قومك مثلهم ﴿الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾.

ثم يطمئنه قائلاً:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٢) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٣)

أي: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ لنحاسبهم أجمعين ﴿عَمَّا كَانُوا﴾ يعملونه، وسنجازيهم عليه.

ثم يحدد له مهمته، ويطمئنه قائلاً:

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ٩٤ ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ﴾ ٩٥ ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ٩٦

يعني: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: أظهر الدعوة، وبلغ الرسالة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ فلا تهتم بهم، ولا تتعرض لهم. وكان هذا قبل الأمر بجهاد هؤلاء الكفار. ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ﴾ شر هؤلاء ﴿الْمُسْتَهْزِينَ﴾ بك وبال دعوة، وهم هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ، وَ﴿يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ من خيالهم، أو تقليداً لأبائهم. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ غضبي عليهم، وشدة عذابي لهم.

ثم يوضح ربنا للنبي ﷺ ما يساعده على النجاح في أداء مهمته، وتبليغ رسالته حيث يقول له:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ٩٧ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ٩٨ ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ٩٩

أي: نحن ﴿نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيك، أو في القرآن، أو في الله، مما يؤذيك ويؤلمك، فلا يهمنك ذلك.

واستعن على تحمل ذلك بتسبيح ﴿رَبِّكَ﴾، والسجود له، وعبادته المستمرة، في كل حال، حتى آخر لحظة من حياتك ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ وهو الموت. حيث إن مقابلة الإيذاء بالتسبيح، والسجود، والعبادة زاد الدعاة، ومن لا يستطيع ذلك، لا يقدر على الاستمرار.

هذا وبالله التوفيق.

